«إن قيمة الفكرة في حسابها العملي الأخلاقي» أي في نمط تأثيرها في الناس والحياة... أي أننا «نريد العنب لا مقاتلة الناطور» «فمن ثماركم نعرفكم» المسيح، وثمار الفكرة يكشفه طابع وطبيعة الفكرة.

«إن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة» لينين، و(لا حركة ثورية دون نظرية ثورية) لينين الأمر الذي يفسره إلياس مرقص، بأن لا حركة تاريخية وعمليات تاريخية دون فكرة موجهة لها... وإن مراجعتنا لأية مرحلة تاريخية (المرحلة الإغريقية واكتساح أوروبا والشرق، الإمبراطورية الإسلامية تشكلها وتمددها وتفككها، أوروبا المرحلة الإمبريالية ونهبها للعالم، الثورات الاشتراكية هنا وهناك)، إلا ووجهتها رؤية فكرية، بل إن هذه المشروعات الضخمة إنما أنتجت وبلورت رؤيتها في جدلية الممارسة والفكر... لهذا لم يكن صدفة أن لا يولد أي فكر دفعة واحدة، بل مرتبطاً بالممارسة ومقتضيات الانتشار والبناء وقضايا الناس...

إن من يقرؤ الفكر القديم يلاحظ تداخله وتواشجه وتناسله، فالحضارة البشرية مترابطة، والثقافات مترابطة أيضاً، ونعثر على تشابهات كثيرة بين الثقافة الآسيوية والثقافة الشرق أوسطية، وجذوراً كثيرة للفكر الديني في الفكر الذي سبقه سيما الفرعوني والآشوري والكنعاني، أما الفكر الماركسي فقد استند إلى الإرث البشري سيما الفكر الرأسمالي. وكل فكر جديد إنما جاء ليستند لما سبقه ويعالج قضايا جديدة. إننا كالرحّالة ابن بطوطة في الفكر البشري، نقرأ ونستخلص ونغتني إلى أن وصلنا (للنظرية النقدية الكبرى) طرابيشي، الماركسية – اللينينة، العقل الذي تتكئ عليه وتتشرب به الطبقة العاملة والطبقات الشعبية والشعوب المقهورة في ثوراتها على الظلم الرأسمالي والاستعماري والتخلف من أجل بناء مجتمع إنساني لا استغلال ولا قهر ولا اغتراب ولا اضطهاد فيه... ونعرف تماماً أن الفكر البشري سلسلة متصلة في دراما الحياة، وما أضافته كل نظرية وكل دين وكل مقاربة...

وعليه، فإن القضايا الكبرى التي تواجهها البشرية هي «المسألة الطبقية/ المسألة القومية/ المسألة التنموية/ المسألة الديمقراطية/ مسألة المرأة/ المسألة العقلية ومسألة الكرامة الإنسانية» هذه هي مرآة التحدي لأي فكر ليتقدم بمساهمته ومقارباته للإجابة عليها، وللإنسان الفرد والإنسان كنوع، كجماعة بشرية، وللقوى الاجتماعية أن تختار. فلا أحد يستطيع منع المعرفة بتعليب الناس في كهوف مغلقة، ولا أحد يستطيع فرض المعرفة على عقول البشر رغم تأثيرات وسائل الإعلام والتعليم والقانون، ففي النهاية ثمة (ثقافة نقدية) غرامشي، ضد الثقافة المسيطرة، والفكر الاشتراكي رغم «الحرب الصليبية» عليه تشويهاً واختزالاً وتكفيراً، فهو تيار أساسي في أرجاء المعمورة، حتى أنه وصل مجتمعنا البسيط الذي لم يبلغ المرحلة الرأسمالية، وهذه حال العديد من الشعوب، فما بالكم باحتمالات المستقبل حيث يتمدد التحديث وتتمدد الحداثة، أي البنية التحتية والبنية الفوقية، لبلورة الطبقات والحركات النقابية وعلاقات الإنتاج الرأسمالية ومغادرة مخلفات (القرون الوسطى) لينين، وانتشار التعليم... فذلك من شأنه أن يؤمن البيئة للرؤى المعاصرة رأسمالية كانت أم اشتراكية، كما يهدينا الفكر الاشتراكي في فهم الرأسمالية والامبريالية والصهيونية، ويرشدنا في البناء الحزبي الثوري وتنظيم صفوف الشعب وفن التحالفات وحل التناقضات وربط التاكتيكي بالاستراتيجي وتسليحنا برؤية تنموية وتصليبنا عقائدياً... فالفكر الاشتراكي ليس مجرد مقولات يرددها بعض «الليبراليين» حتى لو زعموا أنهم ماركسيون،